الأميرة هيفاء والامير فخر الدين الكبير

رواية لبنانية تاريخية ادبية (تابع)

بقلم -
الاب مبارك ثابت اللبناني
رئيس دير المخلص في البرامية

٧

نشأة الامير فخر الدين الثاني الكبير وتوليه حكم الشوف

وُلد الامير فخر الدين الثاني في بعقلين في قصر ابويه قرقاس ونسب شقيقة الامير سيف الدين التنوخي من عبيه . نظم تاريخ ولادته بعض الشعراء مخاطباً الامير والده بقوله :

يا أميرَ الجودِ هنئتَ بمَن آنس الكون وحيَّا الأعلا
قد غدا الدينُ بهِ مفتخرًا أرّخوهُ « فخر دين » هلَّلا

سنة ٩٨٠ هـ سنة ١٥٧٢ م

ونشأ في بيت ابيه الى سن الثانية عشرة فلما توفي ابوه على ما مرَّ وخافت امهُ عليه وعلى اخيه ان يبطش بهما ابراهيم باشا فزع بهما الحاج كيوان نعمه ضو الماروني من دير القمر الى الشيخ ابي صقر ابراهيم الخازن ابن الشدياق سركيس الخازن من الحزب القيسيّ ولبثا تحت جناح عنايته الى ان اقشعت سماء الراحة فاستقدمها خالهما الامير سيف الدين التنوخي عام ١٥٩٠ ، وكان عمر الامير فخر الدين ١٨ سنة . فغمره خاله بعنايته واستوفى تدريبه في الحكم واستعاد اليه ولاية الشوف بسياسته البارعة وآرائه السديدة وأزوجه بنت الامير

جمال الدين الارسلاني اليمني ليستميل اليه اليمنيين وحلفاءهم اعوانا على السيفيين. فولدت له ابنه عليا عام ١٥٩٨ . وطمع فخر الدين في استرداد الولاية على سنجق صيدا والبقاعين وما اليها ليبسط سلطانه الى ما وراء مقاطعة طرابلس حسدا لشوكة السيفيين إذ كان قد شبَّ على مقتهم لسعاية عميدهم يوسف باشا بالامير قرقماس ابيه ؛ وسعايته بعد ذلك عام ١٥٩٠ بقتل الامير محمد العسّافي خليف المعنيين وبعض اعوانه الذي انقرضت بموته سلالته وتعاظمت صولة السيفيين .

وكان مراد باشا الحاجب القبوجي نائباً في دمشق فحمل اليه فخر الدين هدايا نفيسة ونزل عليه مع خاله مستعطفاً فاستمال اليه الدولة وأعاد اليه سنجقيَّة صيدا ومكَّنه من ولايته . ولم يعد الامير ينقطع عن زيارته في دمشق . وشدَّ الامير سيف الدين أزر ابن اخته بالمال والرجال اذ رأى امارة التنوخيين القيسيين قد نال منها الضعف ومالت شمسها الى الزوال وليس أجدر بتوليها بعدهم من فخر الدين لما بدا له من عظم دهائه السياسيّ .

وكان الامير المعني متزعماً على حبّ المسيحيين لاخلاصهم له ولاسلافه المعنيين ولاقامته بينهم بضعة اعوام في قلب كسروان الى ما تحقَّقه من مودة الحاج كيوان بانقاذه اياهُ واخاهُ يونس من مخالب المنون . وما لقيهُ في بيت الخازني من محبة والدية وجودٍ حاتميّ وحسن تربية وصيانة واهتمام . فاتخذ الحاج كيوان مدبّراً لهُ وايضاً اسند منصب المدبّرية الى الشيخ ابي صقر ابراهيم الخازني اثابة لهُ على معروفه وتقريباً للمسيحيين ونصب اخاه رباحاً الخازني دهقاناً لهُ وأمّره على جيش المشاة بعد ان كتب الى كل منهما « الاخ العزيز » فاصبحا شيخين سنة ١٥٩٨ . وكان من همه الاستعلاء على السيفيين فاستمال اليه الارسلانيين الدروز بالمصاهرة على ما تقدم . ثمَّ حالف الامراء الشهابيين حكَّام وادي التيم، والحرفوشيين الشيبين حكَّام بعلبك والجنبلاطيين الدروز حكَّام كلس وضواحي حلب ، وأمراء العرب في جبات حوران وفلسطين كما استمال المسيحيين في لبنان وما اليه . وقد اكسبته تربيته بين لموارنة من المحبة للوطن اللبناني ما حبَّب اليه التضحية بكل شيء في سبيل ستقلاله وقطع كل يد تمتد اليه .

ولما كانت قوة الحاكم بالمال والجيش نظّم الامير مالية الحكومة ورتّب الفرق وكانت تسمّى (الوجاقات) فجمع اليه السكبان وحصّن كثيرًا من القلاع وبنى حصونًا جديدة وأبلغ عدد جنوده من السكبان والدروز الى مئة الف جندي اتخذ لهم الجرايات وصرّفهم في أموره .

ولمّا استوثق من قوّته وحلفائه عقد القلب على محاربة يوسف باشا سيفا ، فدارت رحى القتال بينهما عند نهر الكلب ، وكان في جنود السيفي الحُيشيون والمملوفيون وكثيرٌ من اليمنيّين ، فشدَّ عليهم المعنيُّون حتى انخلعت قلوبهم هولًا ، وكرَّ تبعةُ الطبشاريُّ البعلبكيُّ على الامير علي سيفا شقيق الباشا يوسف فصرعهُ وتمزّق العسكر الطرابلسي وولّوا الادبار لا يلوون على شيء . وتولّى المعني كسروان وقلّد نصراءهُ الخازنيّين حكمها واحتلَّ مدينة بيروت . وبعد سنة رُدَّ البلدان الى ابن سيفا بتوسط الامير محمد الارسلاني ابن حمي الامير فخر الدين .

ولمّا كانت سنة ١٦٠٠ توفي الشيخ ابراهيم مدبّرُ الامير وخلفهُ في منصب المديرية ابنهُ ابو نادر الخازن . وعالج يوسف باشا سيفا اوهاب انصار الامير حؤولًا دون تقدمه الى الشمال ، فأرسل الشيخين قانصوه ويوسف حماده فقتلا مقدّمي جاج الاربعة الموارنة . فخرج صدر الامير وقام يوسع نطاق حكمه الى الشمال والجنوب . وكان قد تولى حكم البقاع عام ١٥٩٤[1] فاستولى سنة ١٦١٣ على بلادُ صفد وما اليها . وسنة ١٦٠٥ على كسروان وأسند ولايتها الى الشيخ ابي نادر الخازن . وكان ان رجال الدولة قتلوا حسين باشا جنبلاط . فثار عليها ابن اخيه علي باشا جنبلاط . وكان التجار الافرنج التوسكانيون يأتونه بالاسلحة فيسهّل عليهم سبل التجارة . ممّا اضرَّ بمنافسيهم البنادقة حلفاء

١) كانت امارة البقاع للامير منصور بن الفريخ البدوي ، حالف يوسف باشا سيفا ووشى بالامير قرقماز المعني والد فخر الدين ، انه أرسل رجاله لنهب الخزينة في جون عكار فسعى به فخر الدين لدى وزير دمشق فقتله في الفلعة سنة ١٥٩٣ وصار حكم البقاع الى المعني . واغراه بالمعني احمد باشا الحافظ وابن سيفا فتلاقى الامير المعني المخطب وأوفد الى الوزير الحاج كيوان ليبرّئ ساحته عند الوزير ويسلّ سخيمته فادرك الوطر واقنع الوزير بانّ الامير انما حالف الجنبلاطي على ابن سيفا لا على الدولة ولو عرف انها واجدةٌ عليه لفاطمه .

الدولة . ثمَّ عالن بالخروج على الولاة وكان المعني موافقاً له ، فاتسع لاعدائه مجال الوشاية به واحفظوا الدولة عليه . فأرسل السلطان احمد مراد باشا الحاجب القبوجي برتبة سردار الى بلاد الشرق بثلاثة الف جندي وعمره اذ ذاك ٨٠ سنة ، وأمدَّه احمد باشا الحافظ ويوسف باشا سيفا بالٍ ورجالٍ فتكفَّل بعليّ جنبلاط واسرته وسكبانه واقرَّ الامن في البلاد .

ثمَّ أوفد الامير اليه ابنه علياً بهدايا غالية فاكرم وفادته وأعظم ذكاءهُ وجرأته على حداثة سنه اذ لم يكن تجاوز التاسعة ، وامسكهُ عندهُ ستة اشهر حتى أدَّى ابوهُ ستمئة كيس دفعتين . فاطلقه مسندًا اليه لواء بيروت وصيدا وغزير وأعفى بلاد الشوف من الضرائب . فانبسطت سلطة المعني على البلاد من الناصرة الى بيروت ومن بعلبك الى صفد . ووجَّه نظرهُ الى الشؤون الاقتصادية والعمرانية فرقَّى التجارة والصناعة وسهَّل للتجَّار الافرنج المرور في ثغور لبنان في ولايته .

وبعد ذلك أوفد الى الاستانة أبا شاهين محمدًا التلحوقيَّ ليلتمس من الباب العالي اسناد لواء اربد وعجلون الى ولده الامير حُسين ففاز بمبتغيه . أُسند اللواء الى الامير فخرالدين نيابة عن ابنه القاصر فامتدَّت الامارة ايضاً من صفد الى حوران[1] وتألَّق مجد الامير في عهد صديقه مراد باشا وضُربت سرادق العز على ولايته وشمل اهلها الهناء والنجح والرخاء . واستتبَّ في ربوعهم الامن والعمران . غير ان الحكَّام المجاورين كانوا ينظرون الى سؤدده وتقدمه بعين الحسد والحذر .

---

١) كانت الدولة اذا اسندت ولاية الى رجل وأبى صاحبها التخلي له عنها يحاربه الوالي الجديد وتصره الدولة عليه او تسكت حتى يخرجه منها قسرًا ويستولي على بلاده عنوة . لذلك كان استيلاء الامير على الولايات فتحاً عجيبًا يشهد بعبقريته السياسية ومقدرته الحربية . اليك نبذة مما كتبه عن الامير الموسيو يحه دي سان بيّر في تأليفه «تاريخ الدروز» المطبوع بالفرنسية عام ١٧٦٣ قال : كان الامير داهية في السياسة ، استولى على بعض المدن الساحلية كبيروت وصيدا واتخذ بيروت عاصمة لحكمه ، فجدد بناءها . وبنى فيها قصوره البديعة وحدائقه الغناء ومتنزهاته الفسيحة وحصونه المنيعة ، وسهل سبل التجارة للفريقين لا سيما البادقة ، وعزز الصناعة والزراعة ورقى اسباب العمران ، وعدل في حكمه الطويل العهد . لكنه كثَّر الضرائب على حسب غنى المتمولين ، فحسده رجال الحكومة المجاورون

٨

انقاذ هيفاء من اسر اسماعيل

من الحكام الذين استغاث بهم يوسف باشا سيفا للاستعلام عن فتاته المفقودة الامير فخر الدين ، وكان اذ ذاك قد اتسع نطاق حكمه وامتد رواق عزه وسار في الخافقين ذكره . وتألب اللبنانيون حول لوائه المظفر على اختلاف النحل الدينية والاسماء الطائفية . فاختار منهم كل رجل بأس وكل قسور وثاب ، وزحف بهم الى الجهات الجنوبية من لبنان فاستولى على ما هنالك من بلدان الى تخوم عكا. فصفد فالناصرة فالحولة وما يليها الى الجنوب

لمملكته الصغيرة ، وسموا به لدى الدولة فسافر الى اوربة عام ١٦١٣م . ١٠٢٢هـ ، ثم عاد الى الدامور عام ١٦١٥ ، ثم عاد اخيراً الى بلاده سنة ١٦١٧ . وكان ينشر من اعماله نحو مليوني ريال (الريال زهاء ثلاثة فرنكات) يحمل منها الى السلطان ستين الفاً وينفق الباقي على جنوده وكان عددهم يتراوح بين الخمسين الفاً والخمسة والعشرين الفاً . وكان يتخذ سجلين يدون في احدهما اسماء سكان ولايته مع ذكر اعمارهم واوصافهم ومعارفهم . وفي السجل الاخر احصاء الاشجار المثمرة وكروم العنب وشجر الزيتون ونحوها ويتقاضى عن كل شجرة رسماً يسمى Medin مدين.

وكان يحصي الابقار والثيران والمعز والاغنام ويأخذ رسماً عنها ، واحياناً يتفرغ من اعماله السياسية لمراجعة هذه القيود وضبط حسابها والتدقيق في دخل حكومته . وكان مولعاً بدرس علم الكلام والكيمياء ، وله مصور افرنجي رسم له ١٥٠٠ نوعاً من النبات .

ومن اوصافه انه حسن الفراسة يطلع على الحيل والخيانات فيستظهر على اعدائه ومناوئيه ويقوم بمهام حكومته بنفسه . ويترك الحكم في شؤون المسيحيين لرؤسائهم الدينيين ، ويستطلع جميع حوادث ولايته لا يخفى عنه شيء منها . ويحكم في شؤون الجنود والشرطة بنفسه . وبعد عوده من توسكانا حصلت مواقع كثيرة بينه وبين الحكام ولاسيما حاكم دمشق احمد باشا الحافظ فتغلب بحسن درايته . وفي سنة ١٦٣١ كانت بلاده اعمر بلدان الشرق وشعبه ستوفياً اسباب الرخاء والسلام في مملكته الفسيحة . وارسل اليه دوق توسكانا عدداً كبيراً من المهندسين والحفارين والحجازين والمدفعيين والمدافع والادوات لتحصين القلاع وتموين العساكر وتهيئة معدات الدفاع . وهيأ له ستة الاف رجل من الجيش التوسكاني كان وعده بارسالها في غاية حروب فرنسا واسبانيا الدينية والسياسية من عام ١٦١٨ — ١٦٤٨

وُلد سنة ١٥٧٢ ، حكم لبنان سنة ١٥٩٥ . قتل في الاستانة سنة ١٦٣٥ ، انتهى كلام الموسيو بيجه .

والشرق ، ثمَّ جال بعقبانه الجولان وانقض بشواهينه على حوران ففتح ابوابها وصادر حكّامها وقبض على زمامها ودان لسلطانه سهلها وجبالهـا وخفقت اعلامهُ فوق مدنها وقراها . وكان اذا أقبل على قريةٍ دعا اهلها الى الخضوع فاذا امتثلوا حقن دمـاءهم وعفَّ عن اموالهم ونظَّم شؤونهم وجمع منهم متطوعين لقتال غيرهم . وان مالوا الى المعصية اطلق فيهم النار والحديد حتى يمنوا لهُ صاغرين . فانتشرت في البلاد مهابتهُ وقيَّدت القلوب محبَّتـهُ . وكان انتصاره بها اكثر منهُ بكثرة العُدَّة والمدد . من القرى التي دخلها بغير قتال درعا ونوى وشحـكين وداعـل وطفس واذرع وغباغب وبصرى اسكيشام وبصرى الحرير . ولمَّا استتبَّ له الامر استراح بضعة ايام في بصرى واستدعى اليه اقطاب البلاد وشيوخ العرب وفيهم رؤساء عرب السرديـة وبني الحريري وزُعيب وغيرهم ، فاوصاهم ان يخلدوا الى السكون ويحسنوا الطاعة للحكّام العرب الذين ولّاهم على العشائر ، الى غير ذلك من الشؤون ، ثمَّ قال لهم : لقد أنبئتُ انَّ في بلادكم نُزلًا عليكم من بني شعيب ، اختطفوا من بيت سيفا حاكم عكّار وطرابلس فتاة اسمها هيفاء لم تزل معتقلةً في خيامهم . فاعلموا ان اباها سـأتي العمل لانقاذهـا واستحلفني بتربة ابي ونخوة آل معن فليس من شيمتي ان اردَّ سائلًا أو اخيب مؤمّلًا ، فارغب اليكم ايها الاعيان ان تكشفوا عن مخبإها وتأتوني بها وبمختطفيها ، فان فعلتم فانتم اهل خير وحقيقون بالشكر والاكرام ، وإلَّا فانتم شركاء القوم في نذالتهم وضامنون مثلهم . فنهض رجلٌ من عرب الفحيلي وقال . عاش الامير : ان الشعيبيّين في حمـايتي نزلوا عليَّ مستجيرين فأجرتهم ، وانَّ خيامهم اليوم الى جانب خيامنا في طرف اللجا . أمَّا أسيرتهم فلا اعرف من امرها شيئًا . فان كانت عندهم وقد خبَّأوها عنا فعمّا قليل تكون بين يديك . أمَّا خاطفوها فلا أملك اسلامهم لمـا لهم عليَّ من حرمة الجوار . قال الامير : ليس على الحرّ ان يجير وقوحًا يركب الدنايا وهو في ظلّ حمايته . قال الاعرابيّ : انما أجرتُ بني شُعيب فرعين ملهوفين منكوبين واغاثة الملهوف فريضة على العربي . فان كانوا قد ركبوا دنيئةً في الخفاء فلسنا بدنيئتهم ملوَّثين ، أرسل معي من رجالك من يدخل خيامهم فـان وجدوا

الضالّة أتوا بها ولا يتصدون للقوم ونحن نقوّض خيامنا عنهم ونصرفهم عنّا . فأصحبهُ الامير بمئةٍ من فرسانه فعادوا اليه بالفتاة مع اسماعيل الشعبي وابنه عزّام . فقال النُخيليُّ للامير : هذه الفتاة سالمة . وهذا زعيم الشعبيين وابنهُ يسألا الصفح . فبتربة أبيك ألّا صفحتَ عنها وعن كلّ من لهُ اصبع في حادث اختطاف الفتاة . قال الامير : وهبتك دمهم . وأذن لهم فجلسوا ، واستعلم اسماعيلَ قصةَ اسيرته فرواها لهُ ، وقال انّ الذين اختطفوها بامرهم هم من العرب الرُحّل . قبضوا اجرتهم وانطلقوا الى حيث لا أدري . قال الامير : وما حملك على سبيها ؟ قال : ان السيفيّين قوّضوا عزّنا وخرّبوا ديارنا وضبطوا أملاكنا وشتّتونا تحت كل كوكب وألجأونا الى الحاجة بعد ما كنا مقصدًا لأُولي الحاجات ، ونحن بحكم الدهر وهوان الضعف قاعدون عن الثأر ومقيمون على الضيم ، أيكون لطخة باعراضنا وخسةً بأخلاقنا وذنباً علينا ان نذيق عدوّنا بعض ما أذاقنا ونجبره على اقتداء اسير عزيزٍ عليه بشيء من مالنا الذي سلبهُ . والله يا أمير ما أرسلتُ الرجال الى طرابلوس ليأتوني بامرأة بل برأس عميد السيفيّين أو باحد اركانهم . فلمّا استعصى الغرض عليهم أتوا بابنة عدوّي فأمسكتُها حتى تُفتدى ولم أسمها ذلًا وهوانا كما صنع قومها بنسائنا بعد ما سبوهنّ ، هذه قصتي يا أمير . فاحكم فأنت أعدلُ من حكم . قال الامير : عذرتك فلا حرج عليك . ولك عليَّ فدية الفتاة . وأمرَ لهُ بعطاء كثير . فقام عزّامُ الشعبيُّ ودعا للامير وقال : ان شاء سيدي ان يهني هذه الفتاة زوجةً لي فقد قلّدني جميلًا اشكره عليه ما حييتُ . وانا واعده باكرامها وغمرها في الراحة والنعيم فاقشعرّ بدنُ الصبيّة والتهب خدّاها وغطّت عينيها بيديها وقالت : للأسر احبُّ اليَّ . قال الامير : ويحك يا هذا ! اما كفاك ان تركنا لك العقوبة وأدّيناك الفدية حتى قمتَ تطالب بالاثابة على جريمتك . لقد اعتقناها من أسركم فان شاءت البقاء في خيمتك فذلك اليها . قالت هيفاء : ما عرفت لهذا الشاب سيئةً أؤاخذه عليها . ولولا توسطهُ في امري لقيتُ من قومه الامرّين فهو منّي بمنزلة اخٍ وسأُوصي بهِ أبي احساناً . أمّا مصاهرتهُ لابن سيفا فأيسرُ من منالها مسُّ النجوم باصابعهِ ، فان شاء سيدي ان يتمّ احسانهُ الى امته

فليردّني الى بيت أبي . تفرّس الامير في وجهها فملأ حسنها عينيه ووقعت من قلبه ، ثمّ اطرق هنيهة وكأنّ الواجب تمثّل لنفسه الابيّة . فأوعز الى اخيه يونس ان يحملها على فرس في كوكبة من الفرسان الى بعقلين لتكون بحراسة أمه (الست نسب) الى يوم قدومه ففعل . ثمّ مشى فخرالدين بجنده حتى انتهى الى الشام فاحتفى به الدمشقيون أيّ احتفاء . وواصل مسيره تحت الوية الظفر الى بعقلين . استدعى هيفاء وتحدّثا وأنس كلٌّ منهما الميل الى صاحبه وتعاهدا على الزواج . وأرسل الى ابن سيفا يقول لهُ : الاميرة هيفاء عندنا فابعث من يأخذها اليك . فأرسل الباشا ابنه محمدًا في عشرة من سكمانه بهدايا وتحف الى الامير ، فاكرم ضيافتهم وأمسكهم عشرة ايام تأخيرًا لفراق خطيبته .

وكان لفخر الدين بنتٌ من زوجته الارسلانيّة تُدعى الورقاء آية الملاحة والظرف ، رآها محمد فأحبّها ونوى ان يخطبها بعد عوده الى عكار . فلمّا تقضّت الايام العشرة استأذن الامير بالسفر فشيّعهُ واختهُ بالاكرام وألقى الى هيفاء خاتمًا ذهبيًا بحجر كريم علامةً لما بينهما من عهد . طابت نفس ابيها بلقائها وأمر بالافراح فكان مهرجانٌ شائق ثلاثة ايام . وأوفد الامير الشيخ ابا نادر الخازني الى يوسف باشا سيفا يطلب هيفاء زوجةً للامير فردّ طلبهُ ولم يعد اخوها محمد يجرؤ على خطبة الورقاء على انهُ لم ينتهِ امله منها فيسلو عنها فوقف يرقب الفرص بين الرجاء واليأس. ولم تكن اختهُ باسعد حظًا منهُ فقد خانها الجلد وأعجزها كتمُ ما بقلبها فباحت به لبنت منصور مدبّر ابيها على ما مرّ .

٩

كانت طيبة بنت منصور تحب هيفاء محبةً بليغة صادقة لما بينهما من التماثل طباعًا وعمرًا وقد نشأتا معًا قرينتي وفاء وعشيرتي طفولة وصباء . وكان بينهما ركونٌ واخلاص وشركة في العواطف والاهواء وإلفة على السرّاء والضرّاء. فغمّها ما حصل لصديقتها من اغتمام ووطّنت القلب على تفريج كربها ، فلمّا رجعت الى بيت ابيها تفرّست امّها في وجهها فاذا بهِ وجوم وبعينيها أثرُ بكاء فاضطربت وقالت : ما دهاكِ يا صبيّة ، ما لعينيكِ محمرّتين ، أباكيةً كنتِ ؟ ما أبكاكِ ؟ ما لكِ ساعة خرجتِ من البيت وكانت في تفرك ابتسامة

الزهرة أيقظها نسيم السحر لتمتص ندى السماء . ثمّ ضمّتها الى صدرها وقالت : ما بكِ يا عين أمك هل تشعرين بألم ؟ قالت : رأيت هيفاء تعالج بُرَحاء الهموم وتهيم في بيداء الفكر فلم أملك نفسي من البكاء .

قالت أمّها : متى كان للهمّ سبيلٌ الى قلب الاميرة هيفاء ، هل طرأ على بنت الباشا ما يُورث لذعةً ومضًا ؟

— لا شيء من ذلك انما بنفسها مرامٌ تخاف في منالهِ الفشل .

— أَلعلّها كاشفتكِ ما بنفسها ؟

— أفضت بسرّها اليّ . واستأذنتها بايقافكِ عليهِ فأذنت لاجل ان تعاوني على ازالة ما يمضّها . ثم ان طيبة قصّت على امها حديث الاميرة هيفاء وألحت عليها ان تستحثّ عزيمة زوجها مدبّر الباشا على ترغيبهِ في مصاهرة فخر الدين بحجّة انها كثيرة الفوائد لاسرته وولايته . تلك انجع الوسائل وأقربها لتمكين هيفاء من بغيتها ثمّ قالت لها : فان تقاعدتِ يا أُمي عن هذا الامر قُضي على تلك الزنبقة البهيّة بالذبول شيئاً فشيئاً تحت حرارة الوجد والهيام فما تلبث ان تجفّ وتيبس وتُسقطها ريح السموم الى حضيض التلف . واذ كانت نفسي متعلقةً بنفسها كان فرحها فرحي وحزنها حزني وحياتها حياتي ، كلانا نحيا او نموت معاً . وانا عالمةٌ بانها لن ترضى من فخر الدين نصيباً آخر ولو ملكاً تعفّر الارض امام عرشه الملوك[1] .

وكانت أمّ طيبة تحبّ هيفاء محبة الوالدة اذ كانت ابنتها بالتربية أسندت

---

١) توفي صديق المعني مراد باشا وصار منصب الصدارة الى نصوح باشا عام ١٦١١ وقدم الى ديار بكر وحلب لتسكين الاضطراب وكان عدوًّا لفخر الدين ومواليًا ليوسف باشا سيفا وللمحافظ والي دمشق ، فطلب نصوح من الامير المعني ان يقتل الامير يونس الحرفوشي فحمل اليه مع مصطفى احد اعوانه ٢٥ الف قرش وخيلًا مطهّمة ونسيجًا فاخرًا . فتقبل الهدية وقال لمصطفى : معي اوامر من السلطان توجب على الامير ان يفصل الكبان ويسلّم قلعة الصبيبة وشقيف أرنون ، وكتب في ذلك الى الامير وخلع على مصطفى وأطلق سبيله ، ولمّا أحلّت حلب نصوحًا أوفد الى المعني بورقلي علي جاويش يطلب مالًا فاكرمه الامير وجاد له بخمسة الاف قرش واصحبه بمملوكه مصلي اغا حاملًا ٥٠ الف قرش للسلطان احمد و٢٥ الف قرش للوزير فجعله الوزير جاويش السلطان وعاد الى مولاه بخلع . وكان الحافظ على خوف من امتداد سطوة المعنيّ في ضواحي عجلون وحوران فركب الى حلب

اليها مهمة تأديبها منذ بلغت هيفاء سنّ الثالثة ، وكانت ترقبها منذ عودها من

وركب معه كنعان الكبير البلوكباشي من أعيان الجند الدمشقي وفروخ امير الحاج وهو جركسي من المماليك شديد البأس ، فأكرم نصوح باشا الامير فروخاً وأسند اليه لواء نابلوس وعجلون والكرك بدلاً من الامير حمدان بن قانصوه حليف المعنيّ . واقرضه ١٥ الف قرش ليتقوّى على خصمه قانصوه والمعنيّ . ووشى الحافظ بالمعني الى الوزير بما أوغر صدره عليه واتفقا على قتاله . وعاد الوزير الى الاستانة وسار الحافظ مع فروخ وسلّم اليه حكم عجلون وطرد الامير حمدان ابن قانصوه وعمرًا شيخ عرب الفارجة من حوران وولّى مكانه رشيدًا شيخ عرب السردية ، فسار المطرودان مرباعها الى الامير فياض الحياري ، واستدل المعني بذلك على سوء نيّة الحافظ والوزير في ما ينظر اليه ، ورأى من جودة السياسة ان يدفع الخطر باستمالة الوزير فوجّه اليه كتخداه مصطفى بثلاثين الف قرش وهدايا نفيسة سيّرها برًا وبحرًا منها مراكب موسوقة صابونًا وقشة ، وبات يتوقع عودته ليعلم بأي عين ينظر الدولة اليه ، ثمّ جاء المطرودان بحوران فقاتلهما رشيد فنزع الشيخ عمرٌو الى المعنيّ وهو في قلعة بانياس فسار الامير معه برجاله الى الفنيطرة ، وكان ثمّ الامير حمدان وعرب الشيخ عمرو فنزل ضيفًا عليهم . ثمّ أتى جم.الى بلاده واكرم ضيافتهم شهرًا وايامًا أخر . فاستنصروه فأبى ان يقاتل معهم قبل رجوع رسوله من الاستانة وألح عليه مدبره الحاج كيوان فاذعن . وخلع على شيوخهم وارسل ابنه الامير عليًا بثلاثة الاف مقاتل فقاموا الى مرج برغوث فنهر المدان . فالتقى عسكر الامير بعسكر الشام فتصادما في المزاريب عند البجّة من حوران يوم جمعة من ربيع الثاني سنة ١٠٣٢ هـ. وانتهت الموقعة بانهزام عسكر الشام وعربان السردية والشرات وفروخ بك وكنعان ومن معها . وغنم الامير منهم مئة رأس خيل مع طبول فروخ سنجق عجلون ونابلوس وجميع زموره واعلامه . وكان الشيخ رشيد وعربه نازلين على الازرق بشرقي حوران ، فعزم الامير على مطاردتهم ومشى بالعساكر ومعه حمدان والشيخ عمرو الى عين جالوت . لكن السكبان استبدوا المكان فتحوّل الجميع الى بلاد البلقاء ونزلوا على نهر حسبان لاجتماع عرب تلك البلاد في وادي الميدان . وتسلم الامير حمدان لواء عجلون . اما كنعان وعسكر الشام فانتقلوا الى بصرى وكان الامير عليّ وحمدان وعمرو بخيمهم في بئر السحرية من بلاد عجلون فانتقلوا الى اربد قرب بلاد أحمد الكتاني وانقضوا على الشيخ ناصر الفحيلي وعربه المخيمين في طرف اللجا فنهبوا الف ناقة وخيلًا مرّوا بها في بصرى وعساكر الشام في غفلة عنهم فاقتسم العرب والسكبان مناصفة ، واستصرخوا فخرالدين فأمدّهم بعشرة الاف مقاتل فيهم بعض رجال يوسف باشا سيفا والامير بن يوسف الحرفوشي وأحمد الشهابي . ثمّ حشد الامير حمدان رجال بني عُيد واحمد الكتاني فتألف لدى الغزاة جيش عظيم زحفوا به على عسكر الشام في البجّة فانهزم الشاميون من وجوههم يطاردهم الذعر . فعاد الامير علي الى والده برجاله مبتئياً منهم غنمة بالكباشية برجالهم عند عمرو وحمدان . وبقي حمدان في عجلون وعمرو في حوران ينزوان العرب برجال المعنيّ المذكورين .

سي حوران فترى انقلاباً في سحنتها ووجوماً في وجهها وذبولاً في بدنها يتزيد على مرّ الايام ، فيؤلمها ما تراهُ من حالها ولا تعرف ما علتها فتعالجها . فلما وقفت على امرها رثت لحالها وعقدت القلب على اخراجها من مأزقها ، وكان لادبها وجمالها سلطة على زوجها منصور فانتهزتها لقطع كل حجة يتذرع بها تملصاً من السعي لتزويج الصبيَّة بن تحب. فلم يجد مفلتاً من النزول عند ارادتها. فوعد وما كان وعدهُ الّا متصلاً بالوفاء .

ثلج صدر هيفاء وأفرخ رجاؤها وأبت إلّا ان تسهم خطيبها بلذَّة الرجاء. فأرسلت توقفهُ على ما يُجرى في بيت ابيها من التدبير والتهيد لسعادتها المشتهاة وتؤمله بقرب اللقاء ، فوجّه اليها جواباً أفرغ فيه كل عواطف قلبه ، وجدَّد لها عهد المحبة مبرماً ووعدها برفع كل العوائق من جهتهِ وأمّلها بقرب الفرج .

فطابت نفسها وعجلت الى صديقتها طيبة تقرأ الرسالة عليها وكلتاهما تضحكان وتبكيان معاً من شدَّة الفرح . غير ان فرحها لم يكن طويل العمر . فما انقضى ذلك النهار وأوت كلٌّ من الظبيتين المتآخيتين الى كنانها حتى كرَّت الهواجس على خاطر هيفاء. فأجفل نومها وامسى فراشها كانه من شوك او نار ، ان الرجاء يسكّن الروع ويخفّف من وطأة الغمّ لكنه اذا لم يكن قائماً على اساس وطيد فلا يلبث ان يتضعضع وينهار . اجل ! ان في رسالة فخر الدين ما ينعش فؤادها ويؤمّلها بامكان حصول البغية ، غير ان قولهُ انهُ (يرفع كلَّ العوائق من جهته) لا يعني انه سيرضى بكل شروط ابيها لان منها ما يحول دون مرامهِ من توحيد الامارة في لبنان وهذا يمتنع قبوله عليهِ . وأبوها مصرٌّ على الاستقلال بولايته . وتعلُّقه بالدولة أضمن لبقاء حكمه من انحيازه الى فخر الدين ، لان الامير طامحٌ الى انشاء سلطنة في هذه البلاد ولا يسع الدولة ان تبلغ من الاغضاء عنه الى هذا الحدّ . فاذا رأت منه خروجاً عليها سيَّرت عليهِ جيشاً قوياً يدمّر بلاده ولا ترجع عنهُ حتى توردهُ موارد الذل وتنفذ فيهِ قضاء الهلاك قتلاً واستئصالاً ، ولا يسلم من لهب سخطها مجازيوه . وأبوها بعيد النظر وذو حنكة سياسية وعلم باحوال الدول وحذر من تقلّب الدهر . فما حيلة مدبّره منصور في امالتهِ الى فخر الدين ؟ بمثل هذه الافكار

المقلقة صرفت ليلها تتقلب على مثل جمر الغضا الى الصباح . حينئذٍ أقبلت عليها طيبة وعالجت ان تطيّب قلبها وتباعد عنها الهمّ والهواجس فما افلحت . فخرجت بها الى حديقة القصر وجعلت تقصّ عليها الروايات والحكايات المعجبة والنكات المستطرفة حتى جلبت اليها شيئاً من السلوان الوقتي وصارت لا تفارقها ساعة ودامت على ذلك بضعة ايام .

اما منصور ابو طيبة فلم يبطئ ان دخل الى يوسف سيفا ساعة فراغ وقال له : أتيتك يا سيدي لامرٍ خطيرٍ أحبّ ان نبحث فيه معاً ، فما انا عندك وفي ظل نعمتك إلّا لاكون عونك على الدهر ومنبّهك الى طوارئ الحدثان . قال يوسف : ما أشكّ في خلوص مودتك وصلاح مشورتك واستقامة قصدك . فهات ما عندك . قال منصور : أرى الايام تنقلب علينا . فالباب العالي لا يُركن اليهِ ولا يعوَّل على تعضيده . لانّ له في جانب عمّاله سياسةً واحدةً لا معدل عنها . وهي انه متى بلغ احدهم مرتبةً من القوة والعز لا يخلّيه يتعداها ، بل يعمل لاسقاطه الى حضيض الهوان ، فلا نحن واثقون من بقاء رضاه ولا نحن محالفون من حولنا من حكّام الاقاليم واقطاب البلاد . فان لم نتلافَ الخطر بعقد المحالفات مع اصحاب القدرة من امراء لبنان وحكّام الولايات المتاخمة فقد اضعنا الرشد وما يبطؤ ان يُنتزع من يدنا الحكم ويصير الى ايدٍ جبّارة كان بوسعنا ان نجعلها لشدّ ازرنا فجعلناها لحطنا والمساهمة في اهلاكنا .

قال السيفيّ : مَن من الحكّام ترى محالفته اجدى علينا فنحالفهُ ؟

— قال : انك لا تجهل ان الامير المعني حاكم الشوف هو الحاكم المقتدر والقائد العظيم والغازي الكبير والسياسي المحنّك الذي في مدّة قصيرة اكتسح ولايات الجنوب ونصب أعلامه الظافرة على عجلون وحوران وضرب أوتادهُ على ابواب دمشق وسيبسط سلطانه على الشمال كما بسطه على الجنوب . فهلّا تضمّ ذراعك الى ذراعه فيكون عوناً لك على الحسّاد والمناوئين وتزداد حولًا وطولًا ويستقرّ حكمك .

— كيف السبيلُ الى موالاته وهو يطمع في بلادي ويحسب عليّ الدفاع عنها جريمة لا تُغتفر ؟

– ما يطلب الامير إلا استقلال لبنان ، ومطلبه عدلٌ لانه وطنه وما كان إلا مستقلاً ، وقد وجّه عزمه الى توحيد الامارة وليس في البلاد قوّةٌ تصدُّهُ عن هذا الهدف . فان ناوأناهُ وأصاب نجاحاً دارت علينا الدوائر ، وان سالمناهُ وعضدناهُ لم تخرج السلطة من يدينا وهو رجل الصدق والوفا..

– واذا حالفناهُ وعصى الدولة لاسخاطها وشبّت بينها نار القتال فجانب اي الفريقين نكون ؟ ان نصرنا الامير اهلكتنا الدولة ، وان ناصرناها عليه نقضنا المحالفة وكنّا من الغادرين .

قال منصور : لا تحالفه على الدولة بل على عمّالها المناوئين له وعلى من يشقّ عصا طاعته من الامراء . فان عمل ما يغضب الباب العالي فسيرِ حملةً لتأديبه ، تقف موقف الحياد ولا لوم علينا لان المحالفة لا تتناول محاربة الدولة.

قال الباشا : ومن اي بابٍ ندخل الى محالفته ؟

– من الباب الطبيعيّ ، وهو ان تزوّجه ابنتك وتزوّج ابنك من ابنته فتصير بين الاسرتين مصاهرة تولد الصداقة والاشتراك في المنافع والمضارّ

– أسلعةٌ بنتُ سيفا فأعرضها عليه بعد ان طلبها اليّ فرفضتُ ؟

– لا نعرضها عليه بل نخطب ابنتهُ فيعود الى طلب ابنتنا فيحصل ما نرومه دون ان نبذل من ماء الوجوه .

– رضيتُ . فافعل .

وبعد ثلاثة ايام كان منصور المدبّر في باب الامير فخر الدين . فأُدخل وحيّاهُ وبسط له مهمّته . وكان حسن المنطق فصيح العبارة قويّ الحجّة ، فأنس به الامير واستطاب حديثه . ولا بدع ان يرحّب الظمآن بالماء الزلال والعليل بالطبيب الحاذق الشفاء ، وبعد اسبوعين أُقيمت حفلات الاعراس في بيتي معن وسيفا فاجتمع اليها خلقٌ كثير ، وصار فرحٌ عظيم في البلاد كلها ونُحرت الوف من الغنم والعجول ومُدّت الولائم عامةً مدى عشرة ايام وجرت المبادلة بين القمرين فزُفّت هيفاء بنت يوسف سيفا الى الامير فخر الدين في بيروت والورقاء بنت الامير المعني الى محمد بن يوسف باشا سيفا في قصره الذي بعكار قاعدة السيفيّين .

١٠

فيصل ابن سيفا

قام في وهم يوسف باشا سيفا عملاً بمشورة مدبره منصور انهُ اذا ظاهر الامير فخر الدين تصير المصاهرة مانعاً لياقيا للامير من اجتياح اراضي حميه . ولو انهُ اقام على عهد الموالاة للامير وخضع له كسائر حكام البلاد لتحقق حلمهُ الذهبي ، لكنه أبى إلّا الاستقلال عنهُ بالحكم وظلّ ينصبُ له المكائد في الخفاء . فلم تنطفِ العداوة بل اختبأت زماناً تحت رماد السلام . أما الامير المعنيُّ الذي شبَّ على مقت الدولة قاتلة ابيه وآلى ألّا يغمد سيفه حتى يوحّد الامارة في لبنان ويحيط بها سوراً منيعاً من الاستقلال وينشر أعلامهُ خفّاقةً فوق الولايات فلم تكن صلة القرابة الجديدة لتغيّر شيئاً من خطّتهِ أو تحلّ فتلةً من عزيمته .

أجل ! انهُ يحبُّ هيفاء حبّاً ما وراءهُ حبّ ، ولم تصر اليه إلّا بعد ما عانى أشدَّ لواذع التدلُّه والهيام . وقد تعاظم حبُّهُ اياها منذ اصبحت منارة بيتهِ ومشكى ضيه وجنّة ناظريه . إلّا ان محبته للبنان وطنه وولوعه بالمجد والمعالي اعظم جدًّا وأولى بالتقديم ولا يعدلها حبُّهُ لشيء مما على الارض .

كيف السبيل الى ما يرومهُ من توحيد الامارة وابنُ سيفا حجر عثارٍ في ذلك السبيل . كلُّ حكّام الاقاليم يتزلّفون له عن استقلالهم بحكم اقطاعاتهم ايثارًا لمصلحة البلاد أو رهبةً من بطشهِ إلّا ابن سيفا فهو لا يقدّم مصلحة على مصلحة نفسهِ . وحجتهُ عند نفسه انهُ اذا توحّدت الامارة وتمّ للامير المعني بناء الاستقلال عن الدولة ، فقد قيدت سلطته وخُسف جاهُهُ وقصرت يدهُ وانقطعت مياذيب الذهب عن خزانته . فانهُ بعد ان نكب المتافين وقرض سلالتهم واستولى على املاكهم صارت له اقطاعة واسعة الارجاء طائلة الثروة تتدفق له منها ينابيع الذهب .

وقد امتدَّ سلطانهُ من جنوبي جُبيل الى تخوم انطاكية، ولم يكن حكمهُ اقطاعيًّا إلّا من حيث الاسم لتصرُّفه به تصرف المالك في أرضهِ المستقلّ بادارتها لا تطالبه الدولة إلا بمال الخراج جرياً على حكمها في البلاد السورية حيث

تكتفي بهذا القدر من خضوع عمالها ساكتةً عما يحدث بينهم من التنازع على السلطة ، ما لم تأنس من احدهم نزوعاً الى الخروج عليها فتؤدبه بنصر خصمه عليه . فهي تضرب الخزف بالخزف ولها السالم وللفناء المكسور .

وقد قبض ليوسف باشا سيفا ان يُطهّر تلك الاقطاعة الطويلة العريضة من كلّ مزاحم ومنازع حتى خلا له الجوُّ وصار في درجة من العزّ عالية . وزاد في غبطته انَّ ابنهُ محمدًا زوج الورقاء بنت الامير المعني استأجر كمرك طرابلس من الباب العالي باجرة سنوية دون العشر من غلته . اذ كان اكبر كمرك في البلاد السوريَّة في ذلك الدهر . فكانت لـه ارباحٌ لا تُحصى بحساب وكان ابوهُ يشتري ببعضها رضا أولي الشان من رجال البلاط ومناصرة الباب العالي لهُ على حسّاده ، لذلك كان يردُّ مطالب صهره السلطة . ومكان ان يذعن لهُ كان يطمح بنفسه الى الاستيلاء على الشوف . وما يعوقهُ عن تصعّد هذا الجبل إلّا الحفى . وكان يرقب الفرص ويرصد المغامز ولا يملُّ النظر في وجوه الحيلة واستنباط الذرائع المبلغة الى الغرض وان سافلةً ونذلةً واثيمةً .

وقع مرَّةً ان زارته بنته هيفا. فجعل يسألها عما عنـد زوجها الامير من مقاصد وتدابير ومعدّات قتـال فتنبهت لغرضه الخسيس وقالت : أجاسوساً أرسلتني الى بيت الامير فأبوح لك بأسراره وأطلعك على نيّـاته . ان كنت على خوفٍ من صولتهِ ورهبة من حَولهِ وطوله فلِمَ لا ترعى جانبه وتطاوعهُ على ما يحبّ . وهو انما يسعى لامرٍ وطنيّ خطيرٍ ؛ فوقع جوابها عليهِ وقع الشتيمة على المذنب . فقال : كأني بكِ يا هيفا. تجهلين حقوق الوالد على الولـد . ألستُ انا الذي اعطيتكِ الوجود ؟ ألم تكوني لي من قبل ان تصيري الى عدوّي، فكيف تؤثرينه عليَّ ؟ أما انكِ في هذا البيت نشأتِ وفي نعمته ربيتِ فكيف ترينه مهدّدًا بالدمار ولا تتلافين سقوطه مع قدرتـك على اسناده ؟ قالت لو علمت ان فخر الدين يرمي الى هدم هذا البيت لما ادّخرت وسعاً في صرفه عن قصده ولعرضتُ له صدري وقلتُ : اضرب هذا الصدر دون ذلـك البيت . الّا ان الامير لا يبغي لبيت سيفا سوى التوطد على السعادة والعزّ . على شرط ان يدينوا له ويتفيّأوا في ظلّ امارته . فـان ابيت إلّا ركوب الطمع وهو

مركبٌ جموحٌ فقد عملتَ على تخريب بيتك بيدك . إنّ فخر الدين يرمي الى هدفٍ شريف وتأبى همته الشمّاء النكوص عن ذلك الهدف مهما يقم في سبيله من عقابٍ صعاب وكيف يلوي عن مرامٍ وهو الذي اذا مشى مشى من خلفه مئة الف قسور من السكبان ومثلهم من عرب عجلون وحوران وموارنة الجبل الاشدّاء ، وما فيهم من يسأله : الى اين يا امير ؟ كيف يحلّ ما ابرمه وامراء لبنان وكبراؤه ومشايخه وأعيانهُ موافقون له على رأيهِ وشادون أزرهُ ومؤتمرون بأمره . من شهابيّين وارسلانيين وتلحوقيّين وحمادييّن وحرفوشيّين وخازنيّين وغيرهم . كلّهم يحبّذون سعيهُ ويباركون : لبّيك نحنُ أعوانُك . وحدِ الامارة لاستقرار الاحكام واستتباب الامن واستيفاء الاستقلال واستكمال العزّ للوطن اللبناني . ولو لم يكن للامير من مصلحة في هذا التدبير غير الثأر من الدولة لابيه لكفى بذلك شاحذًا لعزيمته ، فكيف وبه مجدُهُ ايضاً وتوطيد عرشه وامتداد سلطته وتخليد ذكره[1] فالرأي يا سيدي

١) يريد القارىء الوقوف على تفاصيل ما وقع للمعني بعد انتصار عساكره على عساكر الشام بقيادة ابنه الامير علي ومناصرة حلفائه من العرب ممّا سنذكره عند الكلام عن مواقع عجلون وحوران . اليك ملخص ما كتبه المؤرخون نلتقطه من (مجلة الاثار) : شقّ على احمد باشا الحافظ انهزام عساكره من وجه عساكر المعنيّ يسوقهم الذعر مشتتين . غير ان ذلك سرّه من وجه ما هيأ له من فرصة الانتقام من فخر الدين حسوده وعدوه ، فارسل الى الاستانة رسائل وقع عليها هو والاعيان ، يخبر الباب العالي بان المعنيّ قد تغلب على عجلون وحوران وان رجاله محاصرون دمشق . فوصلت الرسائل وكان مصطفى كتخدا الامير لا يزال في الاستانة وقد وعده نصوح باشا الصدر الاعظم بلواء نابلوس وامارة الحج فانقلب عليه وسجنه في الابراج ، واطلق رجاله فعادوا الى الامير واخبروه فتندم على مطاوعته كيوان . عزم نصوح على اهلاك الامير . فأمرت الدولة باجتماع الدفتر لأمير لعراك . وخمسين لواء بقيادة السردار احمد باشا الحافظ ، وفيهم مصطفى كاتل ديار بكر وعمرو الكتاني والي انطولي وباكير والي قرمان وطويل احمد والي درايزون وحزم والي ملاطية وموسى والي حلب . ومعهم جميع الوية كردستان عساكرهم ، وامدّهم الوزير خمسين الف انكشاري بقيادة أياز اغا . فأتوا جسرًا الى باياس بين طرابلس واللاذقية قريباً من المرقب الى الغرب الشمالي . فلمّا علموا بلاد الشام توجه الى الحافظ الامراء يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والبقاع واحمد وعلي الشهابيان حاكما وادي التيم . فقابلوه في المعسكر انحيازًا عن المعنيّ اليه .

فعلم فخر الدين ان مهابة الدولة ستفرق عنه سائر عمالقه ، فطفق يرمم ويحصن معاقله

الوالد ان تسالمهُ وتدين لهُ على الخلاص فيقرّك في حكمك ويكون ظلهُ عليك اخفّ من ظلّ الدولة . فانك لن تأمن على حكمك ولا على نفسك من مفاجأة غدرها وانقلابها ومثلك من عَلِمَ فاعتبر . ومن الخرق في الرأي ان تؤمل من امير لسنان عدولاً عما اعتزمهُ فانه ليس يثنيه عنهُ سوى الموت .

ولا سيما قلاع بانياس وشغيف تيرون وارنون وجمع اليها بطانته واسرته وحريمه ، واوعز الى الحاج كيوان ان يحمل تجار صيدا التوسكانيين على مراسلة دولتهم لانجاده ، فاستجابوا له معدات كثيرة ووعدوه بالمال والرجال فصار لديه من الميرة والذخيرة ما يكفيه لخمسة اعوام ، وقام في وهمه ان معاقله امنع من ان تدين لقوة على الارض ، وارصد مئة الف قرش في قلعتي بانياس وشغيف تيرون لجرايات السكبان وجعل في قلعة بانياس عشرة بلوكباشية لالف نفر بقيادة حسين اليازجي سردارًا . وعلى عسكر قلعة الشقيف طويل حسين بلوكباشي مع خمسة بلوكباشية على اربع مئة نفر ، واقام حريمه في القلعتين وحظّر على العسكرين التسليم مهما يتلهم من ضيق الحصار .

وكان قد ارسل ولده عليًا الى البرية مع الامير حمدان والشيخ عمرو عام ١٦٠٣ وعزم على اللحاق به . فأتى صفد وانتظر ثمّ كيوان ليأتي من صيدا فيصحبه . وأرسل وفدًا فيهم الشيخ احمد الخالدي كاتب تاريخه الى الحافظ والوزّاد وقاضي الشام وعلمائها ليصلحوا ذات البين ، فرُدوا بالفشل . قال الحافظ : لو ملأ فخر الدين هذه الحيسة ذهبًا لم يُعف عنه حتى يدوس هذا البساط . فأخبروا الامير بذلك فيئس من استمالة الحافظ ولاسيما بعد ما رأى من نزعه ولاية بيروت وكسروان من ولده علي وارجاعها الى يوسف باشا سيفا ، وارجاع حكم الغرب والجرد والمتن الى الشيخ مظفر الحيتداري ، وايالة صفد الى محمد اغا ، وايالة صيدا الى ارنؤود حسن اغا ، وخص هؤلاء على رجال الامير وعزّوهم .

وبينما كان الامير يتأهب للفرار الى حلفائه من امراء العرب بلغه ان الحافظ أرسل عسكرًا الى جسر المجامع بقيادة الامراء احمد الشهابي وفروخ وحمد بن طريه ليقطعوا سلكه ، فتوقّف . وأدركه كيوان فقام الى طبريا بالف فارس من السكبان ، وسار الحافظ من القنيطرة جهة بانياس ثم الى صفد وارسل جنوده لقطع الطريق عليه . فرجع المعني من طبريا الى امام قلعة الشقيف ، وبلغه خبر اصطدام رجاله بعسكر الشام في خان المجامع عند الجسر واندحار رجاله وفرار انه عليّ بيفيتهم الى عرب البرية فبلاد عجلون يتوقع قدوم ابيه . وعلى اثر وصوله زحف على المشايخ أولاد عليّ الصغير في قرية الكوثرية لما سلبوا بعض رجاله فانهزموا من وجهه ونهب قريتهم وعاد الى قلعة الشقيف .

أمّا الحافظ فاستقدم عمارة رودس الثمانية لتسد دون الامير منافذ الفرار من صيدا . فقدم محيي باشا حلمي رودس بشرة مراكب بقيادة الربّان محمد باشا أمير البحر ، فسار الامير المعنيّ برجاله الى ضهر صيدا واجتمع بمحمد باشا وأوقفه على حاله وانّ له في خزينة السلطان واحدًا وخمسين الف ذهب حملها سلفًا اليه . فوعده بالتوسط . فاستكتب الامير

قال الباشا : حياةُ ابيكِ بموت المعني ، فان شئتِ ان يحيا أبوكِ وأخوتكِ وان يعلوَ بيت سيفا ويُحقن دم كثيرٍ ممن تحبّين فافتدي الاكثر بالاقلّ . هلّا تأخذين من يدي ... لا مدية تغرزينها في قلبهِ . لا . فانّه قد يرعبك منظر الدم . بل سمًّا تدسّينه في طعامه أو شرابهِ وتفزعين اليَّ تحت حلك الظلام مخفورة باربعة من رجال ابيكِ رجال بأسٍ أرسلهم معكِ متنكرين .

فلمّا سمعت هيفاء هذا الكلام اقشعرَّ بدنها وفطرَ قلبها فزعاً وترفعاً ونفوراً وأطرقت تفكر : ما هذا الذي يقوله أبي ! ما هذه الخطة الدنيئة الاثيمة التي يسومني ؟ خيانة زوجي ! الغدر بمن تحبُّهُ نفسي ! بمن أفديه بابي وأمي واخي واختي وروحي ووجودي ! ماذا يسومني هذا الوالد الاحمق الّا ان اقتل سعادتي واتخلّى عن نعمتي واخرج من نعيمي وألقي على المزبلة عزّي واخنق عواطفي الشريفة بيدي واطأ شرفي بأخمصي . ويحك ابن سيفا ! أهيفاء تركب مثل هذا المنكر ، أهيفاء التي لو سألها فخر الدين ظمآن شراباً ولم يكن الا دمها لاراقته بلا تردّدٍ بين شفتيه ، أهيفاء تدسُّ لمعبودها المعني في طعامه السمَّ الزعاف . لأن تُقطع يدي ويُضرب عنقي وتُدق عظامي أهون عليَّ من ركوب هذا الغدر الفظيع الاثيم . أما والله لو أسلمني فخر الدين الى كل ضربٍ من الخسف والعذاب وأيقنت انهُ قاتلي عمّا قليل واحراقاً بالنار لغير ذنبٍ الا اني أحبهُ لما انكرتهُ بل قلتُ : زدني « فكل شيء من المحبوب محبوبٌ » فكيف وانا عندهُ بمكان روحه وأعزُّ اليهِ من قلبه، وقد رفع منزلتي وولّاني رئاسة بيته وقرّبني أكثر من أقرب الناس اليه واثنى علي سرّهِ واستئمنني في الشهادة والغيب . لا عشتُ ان اطعنك يا أبي ولا أطاقتني الارضُ على ظهرها ان خنتك يا فخر الدين !

الصيداويين عريضة وأرسلها الى محمد باشا امير البحر مع الشيخ ابي اللطف والحاج محمد خضر ، فسافرا في عمارة محيي الدين باشا التي ذهبت مسرعة لانفاذ سبعة مراكب سطا عليها القرصان . فقرغت ميناء صيدا ، وكان محمد باشا قد ضاف المعني مرّة فصار بينهما صداقة فاكرم رسوليه، وقدم الى صيدا سفينتان فرنسيتان وسفينة هولندية تقلُّ بضائع . فاستأجر المعنيّ السفن الثلاث واقلع ومعه زوجته ابنة ظافر وكيوان وخمسون من مماليكه ، والقى مقاليد الولاية الى الامير يونس اخيه .

صُرَ أبوها في عينها وحلّ مقتُه في قلبهـا وأمسكت عن مجاوبته ازدراء وخلته وانصرفت .

ولما كان من الغد استدعت عبيدها وجواريها فشدّوا لها على فرس وودّعت وخرجت من ذلك البيت وهي تدعو على رجلها بالكسر ان خطت بعد خطوة اليه . وكتمت عن زوجها الخبر تلافياً لاستذكاء جمار البغضاء .

وظلّ الامير فخر الدين متابعاً خطته السياسيّة بمشورة مدبّريه وأعيان البلاد، وكان لطيف الاخلاق سهل المداناة حليماً رئيفاً عادلاً مترفعاً عن المحاباة بعيداً عن التعصّب الديني الذميم ، فاتحاً مجلسه للشعراء والادباء مولعاً بالمطالعة ولاسيما الكيمياء ، يحبّ الفضلاء ويقرّبهم من أيّة طائفة كانوا .

ولاشتهار عدله ومعاداته للدولة كان كلّ من لحقهُ جورٌ من ولاتها ، او خاف نكبةً من قبلهـا يفزع الى الشوف لائذاً بحمى الامير . ولمّا كانت الصواعق اكثر ما تنقضُّ على الجبال العالية اجتمع الى دير القمر قاعدة الحكم (منذ ارتحال فخر الدين الى ايطالية كما سترى) عددٌ كبير من خيرة الاسر من مسيحيين ومسلمين ويهود فازعين الى عدل الامير وحمايته من جور الدولة أو من ظلم عمّالها . واكثرهم من اقاليم سوريا وبعضهم من غيرها . وظلّت دير القمر مفزعاً لمثل هؤلاء العيال الكريمة يأتونها بأهلهم واهلهم وصناعتهم الى آخر عهد الامراء من آل شهاب . فاضحت تلك المدينة الصغيرة اعظم المدن اللبنانية ثروةً وصناعـةً وسياسةً ومعارف . وانجبت للوطن رجالاً كبراء العقول أقوياء السواعد أحبوه أخلص الحب وخدموه أصدق الخدمـة ، وبذلوا لصونه واستقلاله ومجده الراحة والمال والمُهج . وكان المسيحيّون يحبون الامير ويخلصون لهُ ويجلّون قدره ويلتفّون من حوله لانصافه ومساواته بين الطوائف حقوقاً وواجبات ، ولعطفه على المسيحيين ولاسيما الموارنة الذين نشأ في بلادهم ولقف التربية الوطنية والمبادئ القويمة من أفواه فضلائهم وكبرائهم ومن قدوتهم الفاضلة . فتسهّل لهُ ما اراده من توحيد الامارة ، واعترف لهُ بالحكم الامراء والمشايخ والمقدّمون فرتّب مالية عظيمة ونصب ميزان العدل ونظّم جيشاً وطنياً كبيرًا مدرّباً في حمل السلاح زخف به على الولايات فاكتسحها على ما

رأيت في ما مضى . وعينُ الدولة نائمة عنهُ الى ذلك الحين اذ كان يبر أعين وزرائها برهجة هداياهُ ويكمُّ أفواههم بذهبهِ ودهائه . فأخذت نفسهُ تطمح الى عاصمة الاتراك وطفق يعدُّ العدَّة ويتحفَّز للوثوب .

على ان يوسف باشا سيفا كان يرقب اعماله بعين تباعد عنها الوسن . فلما أنس من نفسه العجز عن قتاله وحصل له اليأس من أخذه بالحيلة عمد الى الوشاية والسعاية وعقد مؤامرة عليه مع الحافظ والي دمشق فأيقظا الباب العالي من غفلته وحذَّراه مغبَّة القعود عن نكبته وبسطا له ما صار اليه الامير من عظمة الصولة وامتداد السطوة وما لديهِ من كثرة الجنود والمال والحصون المنيعة ، وما له من موالين ومحالفين في مختلف الاقاليم السورية وما أنشأه في بيروت من صروح وقلاع وحدائق ولاسيما حديقة الوحوش التي أنشأها تشبهاً بالسلاطين الى تسهيل سبل التجارة للتجار الغربيين ولا سيما التوسكانيين المعادين للدولة ، الى غير ذلك من الوشايات مما جعل الباب العالي يوجس خوفاً من خطر على المملكة ، فعقد القلب على ملافاة الخطر بضرب الامير الضربة القاضية ، وكان على اريكة الملك السلطان احمد الاول ، فسيَّر عليه الفين من انكشارية الاستانة وخمسين سنجقاً وأربعة عشر بكلربكياً من ديار بكر واناطولية وطرابزون وحلب وطرابلس الى خمسين الفاً من اشد رجال القتال .

وكان الامير شجاعاً لا يتراجع من امام هول غير ان الفطنة كانت مسيطرة على جرأته فلم يكن ليقدم على امر قبل التروّي ولا يدخل مأزقاً قبل النظر في مخرجه . فلما رأى الفوز غير مضمون لرجاله تلقاء تلك القوات الهائلة امتنع عن القتال حقناً للدماء وجرياً على مبدإ : اتقاء الخطر أهون ذرائع دفعه ، وعملاً بقول الشاعر :

اذا حلَّ الثقيل بارض قوم ... فما للساكنين سوى الرحيل .

فجعل يتهيأ للرحيل الى اوربة .

(لها صلة)